لكن هذا لا ينفي أن هناك ثورات حولت الجيش القائم إلى جيشها الثوري الذي كانت له اليد الطولى في حسم الموقف لصالحها. فثورة اكتوبر، ١٩١٧، الاشتراكية التي واجهت العديد من الأعداء في الداخل والخارج، تمكنت من الانتصار النهائي بفضل الجيش الأحمر، ذلك الجيش الذي انبثق من أرضية الجيش القيصري القديم؛ وذلك عبر استيعابه لعشرات الالوف من جنوده وضباطه. يقول توخا تشفسكي: «ان نضج الجندي الأحمر ووعيه لمسؤولياته على الصعيد السياسي هما وحدهما اللذان، في وسعهما، أن يمنحاه ارادة النصر وروح التصميم والصمود التي بدونها لا يستطيع هضم الاعداد التكنيكي والانضباط في الصف»(١٩).

والدور الذي تلعبه حرب العصابات، بمجموعها، في مؤخرة العدو، من أضعافه وتشتيته وعرقلة تحركاته، عامل مهم في الحرب الثورية. اضف إلى ذلك دورها البناء، على مدى الصراع الطويل، في تكوين جيش الثورة وبلورته، واعطاء هذاالجيش – سواءنشأ من خلالها أو كان موجوداً وواكبها – الوقت الكافي ليشترك معها بقوة في الصراع الاستراتيجي حتى الانتصار.

والجيش، عادة، أداة النظام القائم. فجيش النظام القمعي هو أداته القوية في قمع الجماهير. وجيش الشعب هو حامي الوطن والمدافع عن منجزات الشعب وحارس مسيرة تقدمه. والثورة التي تخوض صراعاً مصيرياً تحتاج إلى جيش ثوري ذي بنية قوية ومرنة قادرة على مواكبة الثورة وخدمة أهدافها. جيش لا يستهدف وجوده الحفاظ على أمر واقع، وإنما لتغيير أمر واقع غير عادل إطلاقاً. وهذا يتطلب قاعدة من الجنود المحترفين والثوار في آن معاً. فالجندي الذي لم يكن شجاعاً البارحة في الجيش القديم، يصبح في جيش الثورة متمتعاً بشجاعة فائقة، وذلك بفضل ما يتميز به من وضوح في الرؤية ، ومن قناعات ثورية عميقة.

لقد ركز الفكر التقليدي العربي على أن تحرير فلسطين سوف يأتي عبر الجيوش العربية، وإن على الفلسطينيين أن يساهموا في معركة التحرير بجيشهم الخاص، أي جيش التحرير. وأيا كان نقدنا لهذا الفكر ومنطلقاته، فإن هناك من تبناه عربياً وفلسطينياً اما لمصالح ذاتية واما بسبب رؤية محدودة لم تستطع أن تنفذ بفكرها إلى آفاق العمل الثوري وامكاناته الرائعة. ففي افتتاحيتها، يوم ١٩٧٢/١/١٦ تحدثت النهار قائلة: «ما دام الفلسطينيون قد تحولوا، عبر المنظمات الفدائية، إلى شبه جيوش منظمة، بدل أن يظلوا فدائيين بالمعنى الأصيل، فماذا يمنع من حشدهم كجيش فلسطيني...»(٢٠) فالكاتب، هنا، ينادي بتحويل العمل الفدائي الرائد للتغيير العربي، ثورياً، إلى جيش نظامي تابع للأطر القائمة. وبالتالي يصبح النضال الفلسطيني مرهوناً بالأوضاع العربية القائمة، وليس عاملاً أساسياً في تغييرها.

وأما الذين رفضوا هذا الفكر بحق، فانهم، للأسف، قفزوا إلى الجانب الآخر من السرج بدلاً من أن يأتوا فوقه. وهكذا أدانوا جيش التحرير بدلاً من أن يدينوا بنيته